



# منهج محمد الغزالي في الكشف عن المقاصد القرآنية

أ.د. محمد زرمان

[www.tafsir.net](http://www.tafsir.net)

مركز تفسيري للدراسات القرآنية  
Tafsir Center For Qur'anic Studies



مركز تفسير للدراسات القرآنية  
Tafsir Center For Qur'anic Studies



المعلومات والآراء المقدمة هي للكتاب، ولا تعبر  
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

## مقدمة:

من المسلّم به أنّ الوصول إلى الحقيقة العلمية في أيّ مجال من مجالات العلوم المختلفة يحتاج إلى منهج واضح دقيق يركّز على القواعد العلمية والإجراءات التطبيقية، ويحدّد البدايات ويستشرف النتائج، ويرسم أسلوب السير فيه بينهما، وإلا كان عبثاً من العبث؛ فالمنهج يستمدّ أهميته من ضرورة توفره في كلّ ما ينتجه العقل إذا أُريدَ له أن يكون نافعاً ومؤثراً. ومن معاني المنهج اللغوية ما ورد في لسان العرب من أنه مشتق من الفعل (نهج وأنهج). أنهج الطريق: وضح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيّناً، والمنهج -بفتح الميم وكسرهما- هو النهج والمنهاج؛ أي: الطريق الواضح والمستقيم<sup>(١)</sup>. وجاء في المعجم الوسيط: أن أصل كلمة المنهج هو نهج، ويقال: نهج فلان الأمر نهجاً؛ أي: أبانه وأوضحه، ونهج الطريق: سلكه، والنَّهَج -بسكون الهاء-: سلك الطريق الواضح<sup>(٢)</sup>.

والمنهج في الاصطلاح هو المسار الذي يسلكه الباحث لتحقيق هدفٍ ما، أو أسلوب وطريقة التعامل مع المواضيع المطروحة للبحث والدراسة. وهو عبارة

(١) لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. بيروت، دار صادر، ٢٠٠٣م، ج١٤، ص٣٦٦.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة. بيروت، دار الحديث للطبع والنشر، ١٩٨٠م، ص٩٥٧.

عن نمط أو نسق من التفكير والخبرات التي تتعلق بميدان من ميادين المعرفة الإنسانية، يسير متسلسلاً في خطوات منتظمة ليفضي إلى نتيجة معيَّنة. وقد عرفه عبد الرحمن بدوي بقوله: إنَّ المنهج هو: «فنّ التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إمّا من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين»<sup>(١)</sup>، أو إنه: «الأداة التي يستخدمها الباحث للوصول إلى غرضه أو غايته واكتشاف الحقيقة أو الوصول إلى المعرفة»<sup>(٢)</sup>.

والعلوم الإسلامية التي نشأت في كنف القرآن<sup>(٣)</sup> وتشعبت إلى تخصصات عديدة؛ كالتفسير والفقه والكلام والتصوف وغيرها، كانت لها مناهجها الخاصة في التعامل مع كتاب الله؛ فلكل مدرسة من هذه المدارس منهج معيّن في دراسة القرآن والبحث في علومه، بحيث تنطلق في أغلبها الأعمّ من توجّعاتها العلمية وتحصر نفسها فيها، وتحاول بشتى الطرق إخضاع النصوص القرآنية لتخدم هذا التوجّه وتغطّي على غيره؛ فمدرسة المحدثين مثلاً: «قصرت مهمّتها وحصرت

(١) مناهج البحث العلمي، بدوي، عبد الرحمن. الكويت، وكالة المطبوعات، ط ٣، ١٩٧٧م، ص ٤.

(٢) أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق. فضل الله، مهدي. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٩٨م، ص ١٢.

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. ينظر: النشار، محمد سامي. القاهرة: دار المعارف بمصر، ط ٥، ١٩٧١م، ج ١، ص ٢٩٥.

اهتمامها بعلوم السُّنة فقط بعيدًا عن الرؤية الشمولية لقيَم الإسلام وعطاءه الحضاري. وهناك مدرسة الفقهاء، وهي مدرسة اقتصرت على فقه العبادات وما إليه، وجعلت منه إطارًا لنشاطها العقلي، وقلّما انخلعت بعيدًا عنه...<sup>(١)</sup>، وقس عليها مدرسة الأصوليين والمتصوّفة والفلاسفة؛ مما جعل علم المقاصد يتأخّر في الظهور، ويتراجع في اهتمامات العلماء، ومعه تتراجع النظرة الكلية الشاملة التي تجمع كليات القرآن في كيانٍ واحدٍ متكاملٍ، ويغيب في الوقت نفسه منهج البحث فيها، على الرغم من الأهمية القصوى التي تكتسيها في ترشيد مسيرة الأمة.

إنّ هذا القصور في عدم إدراك النظر المقاصدي القرآني في تاريخ العلوم الإسلامية، وعدم وجود منهجٍ خاصٍّ للكشف عن هذه المقاصد وتسخيرها، قد قابله في العصر الحديث إقبال منقطع النظير من طرف العلماء والمصلحين الذين اجتهدوا ما وسعهم الجهد للإحاطة بأطراف هذا العلم، ووضع الشروط العلمية والضوابط المنهجية التي تتحكم في البحث فيه، والتأكيد على ضرورة وجود منهج علمي واضح المعالم للتعامل معه. والشيخ محمد الغزالي واحد من هؤلاء العلماء الذين أخذت المقاصد القرآنية حيزًا كبيرًا من اهتماماتهم.

(١) كيف تتعامل مع القرآن، الغزالي، محمد. القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٧،

وقد لاحظنا - في البحثين السابقين<sup>(١)</sup> - أن اهتمام محمد الغزالي الواضح بالمقاصد القرآنية، وإثارته لمختلف القضايا المتعلقة بها، وتأكيدَه على حاجة الأمة الملحة لإدراكها ثم تسخيرها - يوازيه اهتمام مماثل بضرورة امتلاك المنهج الأمثل الذي يتم به الكشف عن هذه المقاصد ورصدها. وقد احتلَّ الحديث عن المنهج عنده حيزًا كبيرًا في معالجته لموضوع المقاصد القرآنية، وهو يعتقد أن استخلاصها من كتاب الله يتطلَّب منهجًا خاصًا يتناسب مع طبيعتها، وينسجم مع أبعادها، ويتطابق مع مراد الله منها، وهو ما أشار إليه طه جابر العلواني قائلًا إن: «المنهجية كناظم معرفي، يردُّ الكثرة إلى الوحدة، والمتشابه إلى المحكم، وهي تتطلب وعيًا معرفيًا على مناهج التعامل مع النصوص، انطلاقًا من المعرفة المنهجية»<sup>(٢)</sup>.

(١) بحثان للكاتب منشوران على موقع مركز تفسير:

- المقاصد القرآنية عند محمد الغزالي؛ أنواعها، مضامينها، وأبعادها الحضارية.

على هذا الرابط: <https://tafsir.net/research/٢٢>

- مركزية المقاصد القرآنية عند محمد الغزالي؛ مقارنة في المفهوم والمصطلح والضرورة.

على هذا الرابط: <https://tafsir.net/research/٢٩>

(٢) مقاصد الشريعة، العلواني، طه جابر. بيروت، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع. ط ١،

١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م، ص ٤٨.

ذلك أن الكشف عن المقاصد القرآنية مبنيٌّ على الاجتهاد، ودقة الاستنباط، وإدراك هذه المقاصد مما تختلف فيه العقول والألباب كلُّ بما فتح الله عليه فيه. فهو جهدٌ عقليٌّ شاقٌّ لا يقف عند إدراك المعنى العامّ المبذول لجميع الأفهام، بل يتعداهُ إلى إشغال الذهن والغوص في ثنايا المعاني، واستنطاق المدلولات، والربط بين جزئياتها حتى يتمكن صاحبها من الولوج إلى روحها الخفية بما أوتي من صفاء الذهن، ودقة النظر. وهي مواهب وعطايا لا تُبذلُ إلا لمن أدام التأمل في كتاب الله، وكرَّر وأعاد البحث والتحري في سوره وآياته؛ لأنَّ المقصود لا يظهر للباحث من أول مرة. وقد أثر عن أصحاب الخبرة أن القرآن الكريم لا يُجَلِّي عن كنوزه إلا لمن أدام صحبته واتخذهُ رفيقاً دائماً وأنيساً ملازماً، وهو ما أشار إليه الشاطبي في قوله: «من اتخذه سميرهُ وأنيسه، وجعله جليسه على مرّ الأيام والليالي؛ نظراً وعملاً، لا اقتصاراً على أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبُغية، وأن يظفر بالطُّبَّة، ويجد نفسه من السابقين في الرعيل الأول»<sup>(١)</sup>، وتابعه فيه الزركشي حين قال: «لا يستقصي معانيه فهمُ الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق؛ فالسعيد من صرف همّته إليه، ووقف فكره وعزمه عليه، والموفق من وفقه الله لتدبره، واصطفاه للتذكير به وتذكُّره... وإنما يفهم

(١) الموافقات في أصول الفقه، الشاطبي، إبراهيم بن موسى. تحقيق: عبد الله دراز. بيروت، دار المعرفة،

بعض معانيه، ويطلع على أسرارهِ ومبانيهِ، مَنْ قَوِيَ نظْرُهُ، واتسع مجاله في الفكر وتدبَّرَهُ، وامتدَّ باعُهُ، ورقتَ طباعُهُ»<sup>(١)</sup>.

من هنا تباينت مناهج العلماء في تناول المقاصد القرآنية واختلفت باختلاف منطلقاتهم الفكرية، وأدواتهم البحثية، وتصوراتهم لجوانب الموضوع، وما فتح الله عليهم من الفهوم والمعاني التي التقطوها من طول مدارسهم لكتاب الله.

ويقوم منهج الغزالي في استنباطه لهذه المقاصد على جملة من الآليات: أولها: التدبُّر العميق والنظر المستديم المتأمل في نصوص القرآن الكريم، وإعمال العقل في أسرارها وخفاياها. وثانيها: توظيفه لآلتي الاستقراء والتحليل، وتتبع النصوص والإشارات المختلفة التي تتمظهر فيها هذه المقاصد. وثالثها: اعتماده القراءة الكلية الفاحصة لنصوص الوحي التي تتجاوز كل أشكال القراءات القاصرة عن إدراك كليّات الوحي؛ كالقراءات الجزئية، والحرفية، والمذهبية، وغيرها من الأشكال التي أساءت فهم البعد المقاصدي للرسالة الخاتمة، والنفاز من منطوق النصّ وظاهره إلى مقصده ومرماه. ورابعها: المعاشة اليومية لهذا الكتاب الكريم واستنطاق آياته لسبر أغوارها

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار المعرفة، ج ١، ص ٥.

والنفاذ إلى معانيها الخفية. وخامسها: انطلاقه من أزمة التخلف الحضاري الذي تتخبط فيه الأمة بسبب افتقادها لروح هذه المقاصد، واستفراغ الجهد في استخلاص أسباب أمراضها وسقوطها من نصوص الوحي المعصومة، أو ما يمكننا الاصطلاح على تسميته بـ(فقه الواقع).

وفي ضوء ذلك، رفض الغزالي استنساخ مناهج العلوم الإسلامية التي وصلت إلينا مع تراثنا الفكري؛ كمناهج الأصوليين والفقهاء وعلماء اللغة وعلماء الكلام والمتصوفة وغيرهم، وذهب إلى أن هناك فرقاً شاسعاً بين هذه المناهج وبين ما تتطلبه المقاصد القرآنية التي تنفرد بميزات خاصة تجعل منها موضوعاً مستقلاً له خصائصه. وفي هذا السياق جاء نقده لهذه المناهج التي عدّها قاصرة عن الوفاء بما تستلزمه المقاصد القرآنية من سعة في الأفق، وشمولية في النظر، وإحاطة عميقة بالأبعاد.

وهذا البحث محاولة منّا للإحاطة بالمعالم الكبرى لمنهج الغزالي في الكشف عن المقاصد القرآنية من خلال الإجابة عن جملة من التساؤلات من أبرزها: هل يمتلك الغزالي منهجاً خاصاً به في مقاربة المقاصد القرآنية؟ وإذا وُجدَ هذا المنهج، فما مميزاته وخصائصه؟ وما معالمه الكبرى؟ وإلى أي حدٍّ وُفق في تطبيق هذا المنهج في أبحاثه ودراساته القرآنية؟

## أولاً: الغزالي ومراجعة مناهج البحث في العلوم الإسلامية القديمة؛

لقد قام الغزالي بمسحٍ شاملٍ للمدارس الإسلامية القديمة الفقهية واللغوية والكلامية والصوفية ومدارس التفسير وعلوم القرآن<sup>(١)</sup>، وأكد أنها أغفلت في معظمها موضوع المقاصد القرآنية، وأسرفت في التركيز على الجزئيات، وحصر القرآن الكريم بكلِّ غناه واتساعه في زاوية من زوايا الفكر أو الحياة، وحرمان المسلمين من آفاقه الأخرى. وأخذ عليها قصورها في ملامسة هذه المقاصد، واسترسل طويلاً في نقده لهذه المدارس، حتى كدنا نستنتج أن الغزالي يريد أن ينسف هذا التراث نفساً كاملاً، لكثرة ما اعتراه من النقائص المنهجية والمعرفية التي أساءت إلى القرآن، وكان لها آثارها الكارثية فيمن جاء من بعد من المسلمين الذين تجسّدت فيهم كلُّ هذه العيوب وزادتهم تخلفاً وبعداً عن هداية القرآن: «وقد تابعتُ وتدبرْتُ الكثير مما كُتِبَ في: علوم الكلام، والتصوف، والأخلاق، ونفعني الله بما شاء من تراث السلف والخلف، غير أنني وجدت الحقائق هنا وهناك، فلم ألزم مدرسة واحدة، ولم أرَ لأحد عصمة»<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من وجهة هذا النقد، وإصابته لمواقع الحقيقة في كثيرٍ من تفاصيله، إلا أن الاستغناء عن التراث وتجاوزه كلياً وإنكار ما فيه من خيرٍ كثيرٍ

(١) كيف نتعامل مع القرآن، ينظر: الغزالي، محمد. ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) سرّ تأخر العرب والمسلمين، الغزالي، محمد. القاهرة، دار الريان للتراث، ١٩٨٧م، ص ٧٣.

أنتج العقل الإسلامي استجابة للسياقات التاريخية والحضارية على مرّ القرون أمرٌ في غاية الخطورة والصعوبة، وهو ما انتبه إليه عمر عبيد حسنة في مدارسته للغزالي، عندما طرح تساؤله عن الوسائل الأمنية التي تكفل لنا القدرة على التواصل الصحيح والسليم مع القرآن مباشرة دون وساطة من هذا التراث الغزيري: «كيف نفيد من هذه المناهج في العودة إلى النبع الأصلي القرآني، وهل هذا الميراث المنهجي مُلزمٌ لنا، وهو لا يخرج عن كونه اجتهاداً حَقَّقَ أبعاداً طيبة في تحقيق الرؤية القرآنية؟ وهل يجوز لنا أن نقفز من فوقه ونتعامل مباشرة مع النصّ؟ وما هي وسائلنا الأمنية لمثل هذا التعامل؟»<sup>(١)</sup>.

ونحن نرى أنّ المبالغة في نقد الاجتهادات الإسلامية القديمة بمدارسها المختلفة لا تستدعي كلّ هذا التشدد. صحيح أنها استنزفت جهود أصحابها في كثير من الجزئيات، وتناولت قضايا خيالية ربما لن تقع في الواقع نهائياً، وهو ما أشار إلى طرف منه الإبراهيمي في قوله: «فوا أسفاه على تلك الحملات العنيفة التي كانت جهاداً ولكن في غير عدوّ، ووا لهفاه على ذلك النقع المُثار وقد انجلى عن غير فتح ولا غنيمة، ووا حسراته على ذلك الذكاء الذي كانت تكاد تشفُّ له حجب الغيب، ذكاء أبي بكر الباقلاني وفخر الدين الرازي وأبي الهذيل وابن المعلّم، وقد ضاع فيما لا تعود على الإسلام منه عائدة، ولا تنجرُّ منه

(١) كيف نتعامل مع القرآن. الغزالي، ص ٤٦.

فائدة»<sup>(١)</sup>، لكن يجب أن نكون صرحاء مع أنفسنا ونعترف أن هذه المدارس قد قامت بدورها على أتم وجه في سياقها الحضاري وإطارها التاريخي؛ فمثلاً: علم الكلام - على الرغم من جميع سلبياته - حمل عبء الدفاع عن الرسالة الإسلامية عندما حاصرتها الشبهات، وتعرضت لمطاعن الفرق الدينية التي أصبح أهلها جزءاً من المجتمع الإسلامي الواسع، والأمر نفسه ينطبق على المنهج الأصولي والفقهية بتنوعاته المختلفة الذي قدّم خدمات جليلة للتشريع الإسلامي ما كنا لنصل إليها لولا هذه الاجتهادات.

أما الأمر الآخر الذي يلح علينا كثيراً فهو هذا التساؤل الذي يفرض نفسه: هل هذه المناهج المختلفة والمتنوعة عندما تأسست كان هدفها البعيد مقارنة المقاصد القرآنية؟ الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها أن هذه المناهج عندما تأسست كانت لديها مجالات معينة تتحرك فيها، وبالتالي فلا يمكننا أن نسجل عليها القصور ونطالبها بأن تخرج من نطاق اختصاصها وتبحث في مقاصد القرآن. كما نسجل من جهة أخرى ملاحظة مهمة، هي أن كثيراً من هذه الاجتهادات القديمة نشطت في سياقها الحضاري الذي وجّه جهودها في هذا السبيل.

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. ينظر: الإبراهيمي، محمد البشير. بيروت، دار الغرب الإسلامي،

ط١، ١٩٩٧م، ص١٦٧.

وهنا يمكننا أن نقول: إنّ الاجتهادات الإسلامية القديمة لم تستطع أن تكشف عن المقاصد القرآنية، ليس لأن العقل الإسلامي آنذاك كان عاجزاً عن إبداع المناهج الخاصّة بها؛ بل لأن الحاجة حينها لم تكن تتطلّب مثل هذه المناهج، وهذا ما جعلها تتأخّر في الظهور إلى العصر الحديث، حيث برزت الحاجة إليها قويّة ومُلحّة بسبب الأزمة الحضارية الخانقة التي جعلت الأمة تبحث لنفسها عن مخرج منها فلم تجده سوى في الكشف عن هذه المقاصد وتفعيلها للإفلات من عنق الزجاجة.

كما لا يفوتنا أن نشير إلى أن المقاصد القرآنية لم تُولد في العصر الحديث من الفراغ؛ إذ لكلّ علم بداية، بل كانت موجودة منذ العهد النبوي، حيث أدركها الصحابة -رضوان الله عليهم- بفطرتهم السليمة وعقيدتهم الصافية، وظلّت كذلك يتداولها علماء المسلمين في أشكال بسيطة إلى أن جاء عصر التدوين فكتب فيها عددٌ غير قليل من العلماء ما خطر لهم من خواطر، وما توصلوا إليه من نظرات في آيات القرآن وسوره، وأشاروا إليها بالتلميح تارة وبالتصريح تارة أخرى. ولم يعرف هذا العلم عصره الذهبي إلا في زمننا هذا بعد أن تكالبت على الأمة صنوف الضعف والوهن والتخلّف والانكسار، وأصبحت بحاجة ماسّة إلى مَنْ يُعيد لها الاتصال بمصدر هدايتها لتصحّح أخطاءها، وتتخلّص من عللها، وتبدأ مسيرة جديدة، فظهر في شكلٍ جديدٍ ومنهجيةٍ مختلفةٍ تنسجم مع الواقع العالمي الراهن.

## ثانياً: ملامح منهج الغزالي في الكشف عن المقاصد القرآنية:

من خلال تتبعنا لكتابات الغزالي لاحظنا اهتمامه البالغ بضرورة وجود منهج واضح وصارم للولوج إلى عالم المقاصد القرآنية، والبحث فيه بأدوات علمية وشروط منهجية تضمن الوصول إلى النتائج المرجوة منها. فهذه المقاصد عنده تستلزم وجود منهج خاص بها ينطلق من الرؤية الشاملة للقرآن الكريم ككل متكامل يأخذ بعضه برقاب بعض، فهل امتلك الغزالي هذا المنهج؟ وما الأدوات والإجراءات التي اعتمدها في هذه المقاربة؟ وهل وُفق في تطبيقها؟ وهل ثمة نتائج معيّنة تعكس هذه الاجتهادات؟ ذلك ما سنحاول شرحه من خلال العناصر الآتية:

### أ- الأسس النظرية والفكرية لمنهج الغزالي في مقاربة المقاصد القرآنية:

#### ١. اعتماد النظرة الكلية والرؤية الشاملة:

من أهم الأسس النظرية التي ارتكز عليها منهج الغزالي اعتماداً القراءة الكلية الفاحصة لنصوص الوحي والرؤية الشاملة التي تتجاوز كل أشكال القراءات القاصرة عن إدراك كليّات الوحي؛ فمن البديهي أنّ كل منهج ينطلق من أرضية فلسفية وفكرية تحدّد طبيعته وترسم حدوده وعلاقته بما يحيط به، والرؤية الكلية أو الرؤية الشاملة هي الأساس النظري والفكري لهذا المنهج عند الغزالي، فلا يمكن مقاربة المقاصد القرآنية دون الانطلاق من هذا التصور؛ لأن

النظرة الكلية والرؤية الشمولية هي التي تمكّن صاحب المنهج من التحرك في هذا الاتجاه، فلو افترضنا -مثلاً- أنه انطلق من النظرة الجزئية والتصوّر الموضوعي للقرآن، فإنه لن يتمكن من مقارنة المقاصد القرآنية بنجاح؛ لأنها تقود في أغلب الأحيان إلى تشتت الآراء والأحكام وتعدّدها، وتناقضها وتضاربها، وتشعبها في سبل متفرقة تغطّي على الحقّ وتطمس معالمه: «إذا بُني الفكر على النظر الجزئي فإن الناظر على هذا النحو سيجد نفسه مخالفاً للآخرين، ومناقضاً لهم؛ إذ سيظلّ حبيس الجزئية من مادة نظره، في حين يصدر الآخر في حكمه عن جزئيات أخرى، فينتهي كلٌّ إلى وإدٍ لا يلتقي فيه مع الآخر... فيكون لانحباس العقل في الجزئيات نتائج سيئة لا على المستوى المعرفي فقط، وإنما على المستوى الاجتماعي. ويكون على عكس ذلك العقل الشمولي الكلي في النظر المعرفي»<sup>(١)</sup>. وعلى هذا الأساس فإن النظرة الكلية والرؤية الشاملة هي الأرضية الصلبة والقاعدة المتينة التي يتأسس عليها هذا المنهج.

وقد حذّر القرآن الكريم من القراءة التشتيتية التي تُفقد النصّ قيمته وأثره وفاعليته في حياة الإنسان، وأخبر أن المشركين عندما وافقوا على بعض ما جاء فيه وخالفوا بعضه الآخر لم ينتفعوا منه بشيء. قال تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ

(١) مقاصد القرآن في بناء الفكر العمراني، النجار، عبد المجيد. مجلة إسلامية المعرفة، س ٢٣، ٨٩٤،

صيف ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م، ص ٨٨.

**الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾** [الحجر: ٩٠، ٩١]، يقول أبو السعود: «والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية - التي هي تفريق الأعضاء من ذي الروح المستلزم لإزالة حياته، وإبطال اسمه، دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضره التبعض من المثليات - للتخصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم»<sup>(١)</sup>.

وفي ضوء هذا التصور، انتقد الغزالي بشدة المناهج العلمية الإسلامية القديمة التي غرقت في البحث عن الجزئيات وغابت عنها هذه النظرة الشمولية تجاه مصادر الوحي: الكتاب والسنة، وكانت سبباً رئيساً من أسباب الفُرقة والتدابير بين المسلمين: «ولعلّ معظم ما تُعانيه الأمة اليوم من الافتراق، وما تتعرض له من المَحَن، وما تتعرّث به الخُطى نحو النهضة، ناشئ عن المواقف التي تُبنى على جزئيات من الأدلة الشرعية في غير نظرٍ شاملٍ»<sup>(٢)</sup>. وَعَدَّ ذلك طفولة فجّة استسلمت بها الأمة إلى الجدل وإثارة الخلاف، ودخلت بها إلى سراديب التيه فغفلت عن رسالتها في الوجود: «إنّ هذا الاهتمام بالأموال الخلافية لون من الطفولة الفجّة، والزيغ الفارّ بأهله من ميدان الحقّ لأنه كثير

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود). أبو السعود، محمد بن محمد.

بيروت، دار إحياء التراث، ج ٥، ص ٩٢.

(٢) مقاصد القرآن في بناء الفكر العمراني. النجار، عبد المجيد. ص ٨٩.

التكاليف، إلى ميدان آخر لا مشقّة فيه ولا تزحمه واجبات ثقال... إنّ أهل القرآن خانوه خيانة فاجرة، واتخذوه مهجوراً، في الوقت الذي أنسوا فيه بباطل من القول، وسخف من الجدل... وغرقوا في غيبوبة عجيبة من المباحث التي ما عرفها السلف الأول، ولو عرفها ما أفلح أبداً، ولا افتتح قطراً، ولا أنشأ حضارة!«<sup>(١)</sup>.

ومن ثمّ دعا بإلحاح إلى ضرورة تجاوز هذه الاجتهادات والقراءات؛ الجزئية والحرفية والمذهبية، وغيرها من الأشكال التي أساءت فهم البعد المقاصدي للرسالة الخاتمة، والنفاز من منطوق النصّ وظاهره إلى مقصده ومَرماه، والاعتماد على التصرّ الكلي الشمولي الذي سيُسهم بقوة في تبصير الأمة بمواطن الخلل في منظومتها الفكرية، ويعمل على إرشادها إلى أنجع السبل للخروج من أزمتها الحضارية.

وقد لقي هذا التوجّه نحو النظرة الكلية الشمولية إلى القرآن الكريم صدّي واسعاً لدى قطاع كبير من العلماء والمفكرين المسلمين المحدثين الذين أدركوا مقدار الجهود الضائعة في التركيز على الجزئيات على حسابها، وأثر ذلك كلّ في إبعاد الأمة عن مصادر الوحي وتحريف أفهامها وتشويه تصوراتها عن

(١) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل. الغزالي، محمد. القاهرة، دار الشروق، طه،

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٧-١٠.

تعاليم دينها الأصلية بما جتته هذه المعالجات التجزيئية على الوحي عندما اتخذته عِضِينَ، فقطعت أوصاله، وفصلت أجزاءه عن بعضها بعضاً، بينما هو في حقيقته كيانٌ واحدٌ ينبض بالقوة والحياة. واستدعاؤه أجزاءً وتفاريقاً لتأييد وجهات النظر المختلفة أضرب به كثيراً وأفقده روحه، وأصاب نسقه المنسجم في مقتل، وشوّه - تبعاً لذلك - الوعي الإسلامي.

## ٢. النفاذ إلى الروح القرآنية وتجاوز الاجتهادات الشكلية:

إنّ المقاربة المقاصدية للقرآن تستلزم النفاذ إلى روحه، والولوج إلى أعماقه، ودراسة مختلف المسائل والقضايا في إطار هذه الروح. وهي أيضاً تشكّل أساساً فكرياً ونظرياً لهذا المنهج، والمقاربة الناجحة للمقاصد القرآنية لا بُدّ أن تتحقق في هذه المسألة. إنّ النظرة الكلية والرؤية الشاملة والنفاذ إلى الروح القرآنية وجهان لعملة واحدة تؤسّس للإطار النظري لمنهج المقاربة المقاصدية عند الغزالي.

وعلى هذا الأساس نجده في مواضع كثيرة من كتاباته يُلحّ على ضرورة التشبّع بهذه الروح القرآنية والانطلاق منها في مقاربة المحاور القرآنية والمقاصد العامة والأبعاد الكلية للقرآن، ويُحيلنا إلى العهد النبوي وما تلاه من مراحل تاريخية كان فيها المسلمون على اتصال حيّ بكتاب الله، حيث وعوه وكانوا في مستوى توجيهاته، فكانت آثاره في حياتهم باهرة: «حينما قرأ العرب القرآن

تحوّلوا تلقائياً إلى أمة تعرف الشورى وتكره الاستبداد، إلى أمة يسودها العدل الاجتماعي ولا يُعرَفُ فيها نظام الطبقات، إلى أمة تكره التفرقة العنصرية، وتكره أخلاق الكبرياء والترفُّع على الشعوب، أمة قدّمت حضارة جديدة للعالم، أنعشت الإنسانية ورفعت مكانتها»<sup>(١)</sup>.

وهو ما حدّا به إلى انتقاد الاتجاه الشكلي الذي يتصل بترتيل القرآن وضبط أحكام قراءته، وتجويد مخارج حروفه، وصرف الهممّ كلّه إلى حسن الأداء، وجعل غاية الجهد إتقان الشكل<sup>(٢)</sup>، وحفظ القراءات والتباهي بها، والتغني بالحروف والكلمات، وربط القرآن بالمآتم والمناسبات، والجلوس للقراءة أو الاستماع كما يجلس المرء لسماع الأناشيد والأغاني، منبهاً إلى أن مأساة المسلمين في علاقتهم بالقرآن الكريم تكمن في أنهم لا يعون ما يقرؤون منه: «إن البون بعيدٌ جداً بين الكلمات التي نطق بها، وبين معناها المصاحب لها، وكم فينا من بّغاوات تجري على أفواههم كلمات جليلة! فإذا ذهبت تلتمس حقائقها في نفوس القائلين وجدت الفراغ أو وجدت النقيض! والمؤسف أن أغلب معاملتنا لله يسيل من هذه العين الحميّة»<sup>(٣)</sup>. فهذه العوامل وغيرها مما يصرف

(١) كيف نتعامل مع القرآن الغزالي، ص ٢٨.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن، ينظر: الغزالي، مرجع سابق، ص ١٥.

(٣) ركائز الإيمان بين العقل والقلب. ينظر: الغزالي، محمد. القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠١م، ص ١٠٧،

عن الهدف الأساس وهو التدبّر والنظر. إنّ هذه الممارسات الشكلية التي استنزفت من الأمة جهوداً كبيرة عبّر تاريخها الطويل، قد حرمت المسلمين من التدبّر الأمثل لآيات القرآن والنظر في معانيها واستشراف آفاقها.

### ٣. الفهم العميق للنصّ وتجاوز القراءة الحرفية؛

والضلع الثالث من أضلاع هذا المنهج في جانبه النظري والتصوري، ضرورة الاسترسال في الفهم العميق للنصّ، وتجاوز كلّ القراءات الحرفية والظاهرية التي تحول دون الولوج إلى الأبعاد القرآنية الكلية، والغايات العامة لهذا النصّ. وكثيراً ما وجدنا الغزالي يقف عند أصحاب هذا الاتجاه معيماً عليهم ضيق نظرتهم، وسطحية تفكيرهم، وإغفالهم للمعاني الكبرى للنصّ ومغازيه العميقة، وآفاقه الواسعة ومداركه العليا التي تربطه بما قبله وما بعده من نصوص، وكأنّ صاحب المنهج عندما ينطلق من هذا الفهم السطحي والظاهري يُفقد النصّ روحه وأبعاده، ويحصره في دائرة ضيقة تحجب التطلع إلى مراميه، وهو المعنى الذي أشار إليه الشاطبي في قوله: «فاعلم أنّ الله تعالى إذا نفى الفقه أو العلم عن قوم، فذلك لوقوفهم مع ظاهر الأمر، وعدم اعتبارهم للمراد منه. وإذا أثبت ذلك، فهو لفهمهم مراد الله من خطابه، وهو باطنه»<sup>(١)</sup>.

(١) الموافقات، الشاطبي، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢١٤.

والبحث في هذه القضية عند الغزالي من السهولة بمكان العثور عليها، فقد ظلّ لعقود عديدة يدعو بالحاح إلى ضرورة التدبّر العميق للنصّ القرآني؛ لأنه في نظره السبيل الوحيد الذي يفتح أمامنا الآفاق الواسعة له، ويؤكد أنّ الذين يقعون أسرى النصّ ويتعاملون معه بحرفيّة يعجزون عن فهم ملبساته ومقاصده، كما يعجزون - في الوقت ذاته - عن قراءة الواقع من حولهم، وتنزيل النصوص على حوائج الناس ومصالحهم. وكلما ضَعُفَ لديهم إدراك المضمون والغاية من نصوص الوحي، زاد تعلقهم بالشكليات والمظاهر واختزال الدّين فيها<sup>(١)</sup>.

وفي هذا السياق كان يدعو وينادي بكلّ صراحة في كثيرٍ من المناسبات أن لا سنّة بغير فقه، والنصّ الذي بين أيدينا يعكس رؤيته الشاملة والعميقة لهذا الأمر: «ترى بليدَ الفهم من هؤلاء يجيء إلى الأثر - وهو في نفسه حقّ - لكنه فيما ضرب له وقصد من أجله بعيد... وهذا ضربٌ من تحريف الكلم عن مواضعه»<sup>(٢)</sup>.

مما سبق نلاحظ أنّ الإطار النظري والفكري لمنهج الغزالي في إدراك المقاصد القرآنية يتأسس من هذه الأركان الثلاثة التي تشكّل الأرضية الفكرية

(١) محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية. عبده، محمود. بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٩م، ص٨٩.

(٢) مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، الغزالي، محمد. دمشق، دار القلم، ط٤، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٩٢.

للمنهج؛ فالنظرة الكلية والرؤية الشاملة، والنفوذ إلى الروح القرآنية وتجاوز الاجتهادات الشكلية، وقوة الفهم وتجاوز القراءة الحرفية هي التي تشكل الإطار النظري للمنهج، وأن أي منهج في نظر الغزالي لا يتحقق بهذه القواعد والأسس لا يمكن أن يقوم بمقاربة ناجحة للمقاصد القرآنية.

### ب- الأدوات الإجرائية لمنهج الغزالي في مقاربة المقاصد القرآنية:

يمكننا أن نلمح جملة من الأدوات والإجراءات المنهجية التي يرى الغزالي أنها تؤسس لهذا المنهج. فالالتزام بهذه الأدوات والإجراءات هو الذي يمكن الباحث من إجراء مقاربة صحيحة للمقاصد القرآنية، وأن عدم الالتزام بها كلّها أو بعضها سيجعل هذه المقاربة تصاب بالقصور المنهجي، وهذا ما يؤكده أحمد سلام الذي يذهب إلى أن أعظم ما أصيب به المسلمون على مرّ تاريخهم: «إضاعة الرؤية المنهجية للبناء الحضاري، مما أوقعهم في شباك الرؤية التجزئية، وغموض معالم المنهج وتداخل أدواره، واشتباة الأسباب بالنتائج، وبالتالي ضياع الفعالية»<sup>(١)</sup>؛ لأنّ البُعد المنهجي في نظر العديد من الدارسين: «لَبَّ كُلَّ جَهْدٍ تَغْيِيرِيٍّ وَجَوْهَرِيٍّ وَأَسَاسِيٍّ، وَبِدُونِهِ يَتَحَوَّلُ إِلَى أَجْزَاءٍ وَتَفَارِيقٍ وَفَوْضَى لَا مَعْنَى لَهَا»<sup>(٢)</sup>. وسنحاول فيما يلي أن نتوقف عند أهمّ هذه الأدوات والإجراءات التطبيقية:

- (١) الأبعاد المنهجية للعمل الإسلامي. سلام، أحمد. مجلة الأمة، عدد ٦٧، (مارس ١٩٨٦م)، ص ٢٦.
- (٢) الأبعاد المنهجية لإشكالية التغيير الحضاري وضرورة المنهج، برغوث، الطيب. الجزائر، دار الينابيع للنشر والإعلام، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٩.

## ١ . التفسير الموضوعي مدخل للمقاربة المقاصدية؛

التفسير الموضوعي علم حديث يبحث في قضايا القرآن الكريم ومقاصده، ومن أبرز خصائصه أنه يجمع عناصر الموضوع الواحد على امتداد القرآن كله ويعالجه في هذا الإطار، وقد عرفه مصطفى مسلم بأنه: «علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر»<sup>(١)</sup>، بينما عرفه الغزالي بقوله: «يطلق التفسير الموضوعي على نوعين جديدين من خدمة الكتاب العزيز: أولهما: تتبُّع قضية ما في القرآن كله وشرحها في ضوء الوحي النازل خلال ربع قرن تقريباً. والآخر: النظر المتغلغل في السورة الواحدة لمعرفة المحور الذي تدور عليه، والخيوط الخفية التي تجعل أولها تمهيداً لآخرها، وآخرها تصديقاً لأولها، أو بتعبير سريع: تكوين صورة عاجلة لملامح السورة كلها»<sup>(٢)</sup>.

وهو علم يهتم بتفسير كتاب الله، من خلال مراعاة الوحدة الموضوعية في الآيات والسور، والتأمل في الرباط الجامع بينها. ومما لا شك فيه أن هناك علاقة وثيقة بين التفسير الموضوعي والمقاصد العامة؛ إذ إنه المدخل الأساس للكشف عنها: «الدراسة الموضوعية هي أوقع المناهج وأعمقها للكشف عن

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، مسلم، مصطفى. بيروت، دار القلم، ط٤، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٦.

(٢) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، الغزالي، محمد. القاهرة، دار الشروق، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٢٨.

عَلَّ النصوص ومناسباتها وحكَمها وهديتها ودلالاتها وظلالها، باستخدام منظار القرآن نفسه طلباً لإدراك ملكة التعرّف على المقاصد القرآنية»<sup>(١)</sup>.

ويذهب الغزالي إلى أنّ التفسير الموضوعي يُعين المسلم على حسن تدبّر القرآن الكريم واكتشاف الروابط الخفية التي تجمع آياته وسوره في سياق واحد، ويرسّخ في ذهنه الرؤية الشمولية والنظرة الكلية، ويقوده في نهاية المطاف إلى الخروج بموقف قرآني واضح من قضية واقعية مطروحة عليه. وهذا النوع من التفسير لا يتأتّى إلا لمن خَبِر الصحبة الطويلة والمعاشة الدائمة لكتاب الله، مع الأهلية العلميّة وسلامة القصد؛ لأنّ الخبرة تنضج القضايا والاستفهامات، ودوام صحبة القرآن تضيء الهداية والإجابات: «فلا يقدر على التفسير الموضوعي الجيّد إلا عالمٌ عاملٌ صادقٌ يجاهد ما في الحياة من إسفاف وانحدار بما في القرآن من رفعة وعلو»<sup>(٢)</sup>.

لذلك ربط ربطاً محكماً بين التفسير الموضوعي ومقاصد القرآن، واجتهد في توظيف نتائج ذلك في فهم واقع الأمة وإيجاد الحلول الناجعة لعلّها، وكانت له

(١) التفسير الموضوعي، غانم، عبد الحميد محمود. مجلة البيان، عدد ١٦٥، (جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ - أغسطس ٢٠٠١ م)، ص ١٩.

(٢) منهج الشيخ محمد الغزالي في تعامله مع القرآن، ملال، يونس. (رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، ٢٠١٠ م)، ص ١٨١.

في هذا المضمار صولات وجولات سجلها في عددٍ من كتبه<sup>(١)</sup> التي ألفتها حول التفسير الموضوعي وبعض القضايا القرآنية.

## ٢. اعتماد آيتي الاستقراء والتحليل للمقاربة المقاصدية؛

إنّ توظيف آيتي الاستقراء والتحليل، وتتبُّع النصوص والإشارات المختلفة التي تتمظهر فيها هذه المقاصد إحدى الأدوات الإجرائية لمنهج الغزالي؛ فقد حظيت آلية الاستقراء بمكانة متميزة في منهجه، حيث اعتمد عليها في مدارس القرآن الكريم، ووظفها في تتبُّع جزئياته وتجميعها وتنسيقها وتحليلها واستخراج ما بينها من الروابط للوصول إلى الكليات الجامعة التي تشكّل مقاصده الكبرى. والاستقراء هو: «أحد الطرق الاستدلالية التي يعتمدها الذهن الإنساني في استدلالاته، وحاصل دلالة الاستقراء أنها انتقال ذهني من النظر في حالات وأحكام جزئية إلى حكم عام»<sup>(٢)</sup>، وهو المعنى نفسه الذي عبر عنه ابن السبكي بقوله إن الاستقراء: «هو إثبات الحكم في كليّ لثبوته في أكثر جزئياته»<sup>(٣)</sup>.

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ينظر: الغزالي، محمد. القاهرة، دار الشروق، ط٤، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. و: نظرات في القرآن، الغزالي، محمد. القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٦، ٢٠٠٥م.

(٢) نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، الحسني، إسماعيل. فيرجينا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٣٥٤.

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج، السبكي، علي بن عبد الكافي. بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ، ج٣، ص١٧٣.

والغزالي يؤكد أنّ رصد المقاصد القرآنية يحتاج بشدّة إلى هذه الآلية التي تُعين الدارس لكتاب الله في العثور عليها والإمساك بذلك الخيط الخفي الذي يربط الآيات ببعضها، ويقود إلى النظرة الشمولية التي تدلّه على هذه المقاصد التي تتوزع بين معانيه، ولا تفشي أسرارها إلا لمن يتناولها بالنظر العميق والاستقراء الطويل والتحليل الصائب: «فالمحاور التي يقوم عليها القرآن الكريم ليست مؤسّسة على أساس أنّ هذا المحور لكذا، وذاك المحور لكذا، ولكن نحن بجهدنا العقلي نجيء لآية واحدة، أو لطائفة من الآيات يمكن أن تكون في قضية واحدة، فنرى أنّ هذه القضية الواحدة تماسكت الآيات فيها على عدّة محاور من الكلام عن الله والكون، والجزاء، والنفس البشرية، والإيمان، والأخلاق، تماسكاً غريباً لا يُعرّف إلا في هذا القرآن، وهذا يجعلنا نقدّم التصور الحضاري للقرآن على أنه يبيّن أُمَّة، ويفتح أبصارها على الكون، ويمنحها الرؤية المتميزة التي تمكنها من الشهود الحضاري على مختلف الأصعدة»<sup>(١)</sup>.

### ٣. توظيف فقه الواقع؛

لقد كان الواقع المتغير الذي يخضع لسُنّة التطوّر يقدّم في كلّ يوم مشكلات جديدة وي طرح أسئلة متباينة تجعل الباحث في المقاصد القرآنية يضطر إلى الغوص في أعماق واقعه لاستجلاء خفاياه واستيعاب حقيقة ما يجري فيه

(١) كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، ص ٤٢.

لتحديد الحاجيات الحقيقية للمجتمع، ورصد الانشغالات الملحة التي تؤرق الناس، ومن ثمّ توظيفها في المقاربات المقاصدية.

وكان الواقع الإسلامي المتردّي الذي يعيش أزمة حضارية خانقة في مختلف مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية يُثير باستمرار شجون الغزالي، ويؤرّقه، ويملاً قلبه أسى وحسرةً، وهو الذي عاش واقعه بكلّ جوارحه: «لقد عاش الشيخ الغزالي متفاعلاً مع عصره، وامتزجت دنياه مع دينه أيّما امتزاج، حتى إننا لنكاد نؤرّخ كتبه بعناوينها، وبموضوعها نتعرّف عليها متى كتبت؛ لأنه عاش عصره واندمج فيه. عاشه وتفاعل معه، وتعامل بعقل ينتمي إلى الثقافة الإسلامية، وبقلب مُفعم بدفء الإيمان»<sup>(١)</sup>.

فكان ينطلق من هذا الواقع يتأمل المصادر الشرعية ويُسائلها ويستفتيها فيما يجري حوله: «ليحكم عليه ويضبطه بضوابط الشرع، ثم يعود إلى الواقع ثانياً بالحلول الشرعية الملائمة، حسب اجتهاده»<sup>(٢)</sup> في إطار نظر مقاصدي شامل وعميق. والمتابع له في كتاباته ومحاضراته وحواراته يدرك عمقَ الهمّ الحضاري الكبير الذي يحمله لأُمَّته، فهو يرسم صورة كئيبة لواقعها فيقول: «أُمَّةٌ هي

(١) تجربة الشيخ محمد الغزالي في تجديد الفكر الإسلامي. يونس، محمد. القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر، ط ١، ٢٠١٢م، ص ٤.

(٢) محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية. عبده، محمود. بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٩م، ص ٦١.

خُمسُ العالم من ناحية التعداد، تبحث عنها في حقول المعرفة فلا تجدها، في ساحات الإنتاج فلا تحسّها، في نماذج الخُلق الزاكي، والتعاون المؤثّر، والحريات المصنّعة، والعدالة الياقة... فتعود صفر اليدين<sup>(١)</sup>. بينما يتسابق أعداؤها في مضمار الحياة، ويستجمعون دواعي القوة العلمية والعسكرية والسياسية، ويتجاوزنها بأشواط تُثير الأسى وتبعث على اليأس والإحباط.

لذلك دعا بالحاح إلى توظيف فقه الواقع في الإدراك المقاصدي، وإحداث إخصاب بين هذا الواقع والنصّ القرآني: «لا بد من جعل القرآن يتحوّل في حياتنا إلى طاقة متحركة... أما أن يوضع في المتاحف والمكاتب للبركة، أو أن نفتح المصحف ونقرأ منه آية أو آيات وينتهي الأمر، فهذا لا يجوز»<sup>(٢)</sup>، مذكّرًا في كلّ مرّة أنّ القرآن ظلّ - منذ نزوله - نصًّا مفتوحًا على كلّ الأزمنة، وفي كلّ الأمكنة، ومعيّنًا ثرًا يغترف منه العلماء على مرّ العصور وكثر الدهور ما يُعينهم على معالجة عِلل واقعهم: «فإمكانية العطاء متوفرة في كلّ عصر في ضوء الموقع، والكسب العلمي الذي يصل إليه الناس، وما يظهر من علوم، وقد يكون الكسب العلمي والمعرفي المتجدّد مفاتيح لفهم أدقّ، وإدراكًا لأبعاد الآيات ومراميها بشكل أفضل، وكيف أنه في كلّ عصر يغترف الناظر في القرآن ما يمكن أن يسمّى معالجة للمشكلات التي يعانيتها»<sup>(٣)</sup>.

(١) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل. الغزالي، محمد، ص ٧.

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، الغزالي، محمد. ص ٦٠.

(٣) كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، ص ٢٠٦.

وهو يعتقد جازماً أنّ التأمل في الواقع الإنساني والاستفادة من القصص القرآني الذي يؤرّخ لمسيرة البشرية عبر تاريخها الطويل في القيام والسقوط يورثنا فقهاً واقعياً يُعيننا على توظيفه في الكشف عن المقاصد القرآنية: «ولو أننا تأملنا في القصص القرآني، واستمددنا منه أحكاماً كما نستمد الأحكام من آية الوضوء أو الغسل - واستفادة الأحكام من الواقع العملي في تاريخ البشرية أهم وأجدر لأنها عامّة، ولأنها تتصل بسنن حضارية - لكانت الأمة الإسلامية لا تقبل الدنيّة أبداً»<sup>(١)</sup>.

#### ٤. إعمال النظر والتأمل أداة للكشف عن المقاصد القرآنية:

إنّ التدبّر العميق والنظر المستديم المتأمل في نصوص القرآن الكريم وإعمال العقل في أسرارها وخفاياها أداة أخرى من الأدوات الإجرائية لمنهج الغزالي في الكشف عن المقاصد القرآنية. فهو يعتقد أنّ كتاب الله نصّ مفتوح يستقي منه المسلمون في كلّ عصر ومصر ما يرشدهم إلى أقوم السبل في تنظيم شؤون حياتهم، وإيجاد الحلول الناجعة للمشاكل الطارئة عليهم، الأمر الذي يدفعهم إلى التفاعل الحيّ والمتجدّد مع آياته باستمرار، وعدم التقيّد بما أبدعه الأوائل الذين كانوا يعيشون في حدود بيئتهم الزمانية والمكانية. إذ كلما تغيّرت الحياة واستجدت الظروف تجددت معاني التدبّر وحقائقه ودواعيه، وكلما نشطت

(١) كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، ص ١٨٣.

طاقات العقل وتبصّر الإنسان في أسرار الكون انفتحت له أبواب التأمل المثمر، وانكشفت له خبايا المعاني، والدلالات الخفية للألفاظ القرآنية؛ لذلك كان العكوف على نصوص القرآن بغية الفهم والتدبّر والاستنباط من أعظم القربات، وأكمل الأعمال، وأوجب الواجبات مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، يقول السعدي: «﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله؛ ليتدبّر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنّه بالتدبّر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرّة بعد مرّة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدلّ على الحثّ على تدبّر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأنّ القراءة المشتملة على التدبّر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود»<sup>(١)</sup>.

فالتدبّر من الأدوات الإجرائية المهمّة التي اعتمد عليها الغزالي في الكشف عن المقاصد القرآنية بإعمال النظر العقلي في الآيات، والاستغراق في تأمل كلماتها واستكشاف معانيها، وتحليل مضامينها، ومقارنتها بغيرها، وإعطائها ما تستحقّ من التدبّر وعمق النظر للوصول إلى مقاصدها البعيدة. ولا غرو فقد كان يعتقد اعتقاداً جازماً أنّ القرآن قد أطلق العقل إطلاقاً لا حَجْر عليه، ودعا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. القاهرة، المكتبة

التوفيقية، ط ٢، ٢٠١٥م، ص ٧٨٢.

إلى إعماله وحذر من تعطيل وظائفه، وكان ثورة على الجمود والحرفية النصوصية التي تغص من شأن ملكة العقل، وسفه الآبائية والتقليد الأعمى، وعاب على المسلمين هذا الفصل الشنيع بين التلاوة والتدبر، فأصبحوا يقرؤون القرآن لمجرد البركة، وكأنَّ ترديد الألفاظ دون الشعور بمعانيها والوعي بمغازيها هو المقصود من إنزال الكتاب، وأكثر ما كان يثير حنقه واستغرابه أن يرى جماعة من الناس يستمعون القرآن، وتمرّ عليهم آيات الوعيد والعذاب التي تحرك الجبال، فيهتفون في نشوة وطرب لجمال صوت القارئ وتغنيه بالآيات<sup>(١)</sup>.

وقد قاده هذا النظر العقلي إلى الكشف عن المقاصد القرآنية التي تتضمنها آيات القرآن الكريم، حيث نجده يقف طويلاً أمام النصوص القرآنية يستخرج منها مغازيها ومراميتها، والآية التي تتأبى عليه يعطيها من الزمن ما تستحقه، ويحشد لها قدراته العقلية، ويتفرغ لها حتى يهتدي إلى أبعادها وأسرارها: «القرآن هو القرآن، لكن أين المتدبرون؟! أنا أتأمل الآية في همس، وأتأملها وأنا أخافها أحياناً، وأتأملها دون أن يتحرك لساني بشيء، أجد أنه قد نضحت معانٍ كثيرة منها في نفسي»<sup>(٢)</sup>، وهذا هو - في نظره - السبيل الوحيد الذي ينقل علاقة

(١) نظرات في القرآن، الغزالي، محمد. ص ٥.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، محمد. ص ١٥٠.

المسلمين بالقرآن من علاقة المتلقّي للاستماع، والقارئ لبلوغ آخر السورة؛  
إلى علاقة المتلقّي للتنفيذ، والقارئ للتدبر للخروج من حلقة السلبية وولوج  
عالم التفاعل الحيّ مع آياته.



## الخاصة ونتائج البحث:

وفي ختام هذا البحث نخلص إلى أنّ الغزالي قد أولى لقضية المنهج أهمية خاصة، وشدد على ضرورة الالتزام بالمنهج واضح ودقيق في مقارنة المقاصد القرآنية للوصول إلى نتائج واضحة تستطيع أن تفتح للمسلمين آفاقاً واسعة لاكتشافها ومن ثمّ توظيفها في الإعداد لنهضة الأمة ورفع الغبن عنها. ويتكون هذا المنهج من شقين: يتعلّق الشقّ الأول بالجانب النظري، ويتعلّق الشقّ الثاني بالجانب الإجرائي التطبيقي في إطارٍ من التكامل بين الشقين.

ومن أهمّ النتائج التي توصلنا إليها نذكر:

١- أنّ الغزالي يذهب إلى أن مناهج البحث في العلوم الإسلامية القديمة قد عجزت عن إدراك المقاصد القرآنية بسبب غلبة النظرة الجزئية عليها، وغياب الرؤية القرآنية الشاملة.

٢- في سبيل التأسيس لمنهج جديد لمقاربة المقاصد القرآنية دعا الغزالي إلى ضرورة تجاوز كلّ القراءات الجزئية والحرفية والشكلية والمذهبية والعودة المباشرة إلى النصّ القرآني دون وسائط تعيقه.

٣- أنّ المنهج يحظى عند الغزالي بأهمية كبيرة جداً في مقارنة المقاصد القرآنية، إلى حدّ يمكن القول فيه بأنه يرى أن لا مقاصد دون منهجٍ بينّ المعالم واضح القسّمات.

٤- أن المعالم الكبرى لمنهج الغزالي في مقارنة المقاصد القرآنية تتكون من شقين أساسيين: شق أول نظري يرسم لنا طبيعة المنهج وخصائصه ومميزاته، وشق ثانٍ إجرائي يعتمد على مجموعة من الأدوات التطبيقية.

٥- أن الغزالي ينطلق من أن التفسير الموضوعي للقرآن بإمكانه أن يكون مدخلاً إجرائياً مناسباً للكشف عن المقاصد القرآنية نظراً للترابط الوثيق بينهما.

٦- أن الاستقراء يمثل أحد الأدوات الإجرائية المهمة في الكشف عن مقاصد القرآن، من خلال تتبع جزئياته وتجميعها وتنسيقها وتحليلها واستخراج ما بينها من الروابط للوصول إلى الكليات الجامعة.

٧- أن الغزالي قد طبق هذا المنهج في كتاباته المختلفة وبخاصة في كتبه الثلاثة: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ونحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، وكيف نتعامل مع القرآن.



## قائمة المصادر والمراجع

١. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. الإبراهيمي، محمد البشير. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٧ م.
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود). أبو السعود، محمد بن محمد. بيروت: دار إحياء التراث.
٣. مناهج البحث العلمي. بدوي، عبد الرحمن. الكويت: وكالة المطبوعات. ط ٣. ١٩٧٧ م.
٤. الأبعاد المنهجية لإشكالية التغيير الحضاري وضرورة المنهج، برغوث، الطيب. الجزائر: دار الينابيع للنشر والإعلام، ط ١، ١٩٩٣ م.
٥. نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، الحسني، إسماعيل. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.
٦. البرهان في علوم القرآن. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار المعرفة.
٧. الإبهاج في شرح المنهاج، السبكي، علي بن عبد الكافي. بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٤ هـ.
٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. القاهرة: المكتبة التوفيقية. ط ٢. ٢٠١٥ م.

٩. الموافقات في أصول الفقه. الشاطبي، إبراهيم بن موسى. تحقيق: عبد الله دراز. بيروت: دار المعرفة.
١٠. محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية. عبده، محمود. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي. ط ١. ٢٠٠٩م.
١١. مقاصد الشريعة. العلواني، طه جابر. بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع. ط ١. ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
١٢. كيف نتعامل مع القرآن. الغزالي، محمد. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٧، ٢٠٠٥م.
١٣. سرّ تأخر العرب والمسلمين. الغزالي، محمد. القاهرة: دار الريان للتراث. ١٩٨٧م.
١٤. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل. الغزالي، محمد. القاهرة: دار الشروق. ط ٥. ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
١٥. ركائز الإيمان بين العقل والقلب. الغزالي، محمد. القاهرة: دار الشروق. ٢٠٠١م.
١٦. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، الغزالي، محمد. القاهرة: دار الشروق، ط ٤، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
١٧. مع الله؛ دراسات في الدعوة والدعاة، الغزالي، محمد. دمشق: دار القلم، ط ٤، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

١٨. نظرات في القرآن، الغزالي، محمد. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٦، ٢٠٠٥م.
١٩. المحاور الخمسة للقرآن الكريم. الغزالي، محمد. القاهرة: دار الصحوة. ط٢. ١٩٨٩م.
٢٠. أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق. فضل الله، مهدي. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر. ط٢. ١٩٩٨م.
٢١. المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة. بيروت: دار الحديث للطبع والنشر. ١٩٨٠م.
٢٢. مباحث في التفسير الموضوعي، مسلم، مصطفى. بيروت: دار القلم، ط٤، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
٢٣. منهج الشيخ محمد الغزالي في تعامله مع القرآن، ملال، يونس. (رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، ٢٠١٠م).
٢٤. لسان العرب. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. بيروت: دار صادر. ٢٠٠٣م.
٢٥. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. النشار، محمد سامي. القاهرة: دار المعارف بمصر. ط٥. ١٩٧١.
٢٦. تجربة الشيخ محمد الغزالي في تجديد الفكر الإسلامي. يونس، محمد. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية للنشر. ط١. ٢٠١٢م.

## الدوريات:

٢٧. مجلة الأمة. عدد ٦٧، مارس ١٩٨٦ م.
٢٨. مجلة البيان، عدد ١٦٥، (جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ - أغسطس ٢٠٠١ م).
٢٩. مجلة إسلامية المعرفة. س ٢٣. ع ٨٩. صيف ١٤٣٨ هـ / ٢٠١٧ م.